تقديم:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أما بعد،

فإن علم العلل علم شريف، لأن شرف كل علم بشرفه معلومه، وعلم العلل علم يميز به صحيح الحديث من سقيمه، ومعوجه من مستقيمه، هدفه الذب عن سنة سيد المرسلين، وبيان تحريف الناقلين وخطأ الراويين، ولهذا أولاه أئمة السنة وحملة الآثار عناية خاصة، وخصوه باهتمام بالغ اهتمام العامة بالخاصة، نصيحة للأمة، وبراءة للذمة، وذوذا عن حوز الملة.

قال ابن رجب رحمه الله في شرح علل الترمذي (٤١٤): وأما أهل العلم والمعرفة والسنة والجماعة فإنما يذكرون علل الحديث نصيحة للدين وحفظا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وصيانة لها وتمييزا مما يدخل على رواتها من الغلط والسهو والوهم ولا يوجب ذلك عندهم طعنا، وغير الأحاديث المعللة بل يقوى بذلك الأحاديث السليمة عندهم لبراءتها من العلل وسلامتها من الآفات، فهؤلاء العارفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا هم النقاد الجهابذة الذين ينتقدون الحديث انتقاد الصيرفي الحاذق للنقد البهرج من الخالص وانتقاد الجوهري الحاذق للجوهر مما دلس به. اهـ.

ولهذا عظم قدر المشتغل به، وسمت منزلة حملته، وعلت مكانة نقلته، حتى غدوا أئمة الشأن في كل زمان، وحاملي راية الحديث في كل مكان.

وبلغ من مزيد اعتنائهم بشأن العلل أن الواحد منهم كان يكتب لأخيه من بلد إلى آخر، في شأن علل الحديث، قال أحمد الباطرقاني: كتب إمام دهره أبو أحمد العسال إلى

ابن مندة، وهو بنيسابور في حديث أشكل عليه، فأجابه بإيضاحه وبيان علته[1].

وكان حفاظه يعدون على رؤوس الأصابع، ولم يبرز فيه منهم إلا القليل النادر، ولم يزل مع مرور الزمان عدم الاهتمام به في ازدياد، واندرس الاعتناء به أو كاد.

قال الحافظ ابن رجب في شرح العلل (٥٦): وكذا الكلام في العلل والتواريخ قد دونه أئمة الحفاظ، وقد هجر في هذا الزمان ودرس حفظه وفهمه، فلولا التصانيف المتقدمة فيه لما عرف هذا العلم اليوم بالكلية اهـ.

هذا، وكانت الفكرة في البداية جمع شتات أجناس العلل التي يعل بها المحدثون من خلال تطبيقاتهم العملية وتصرفاتهم في نقد المتون والأسانيد، لأني رأيت كتب الفن لمتأخري المحدثين عالة على ما ذكره الحاكم في كتابه معرفة علوم الحديث، حيث ذكر عشرة أجناس، وأكثرهم ينقل كلامه ولا يزيد عليه، فعقدت العزم على تتبع ذلك من كتب الفن وكتب التواريخ والتراجم، فتجمعت لدي مع مرور الزمن مادة لابأس بها، فتأملتها، فإذا أجناس العلل تزيد على العشرين جنسا، بينما لم يذكر الحاكم إلا عشرة كما تقدم، وهي عند التمحيص أقل من ذلك، لأن بعض ما ذكره يدخل في غيره، فكان الأولى ضم القرين إلى قرينه، و الشبيه إلى شبيهه.

ثم ظهر لي بعد ذلك أن يكن البحث شاملا لجميع مباحث العلة كي يزيد نفعه، وتعم فائدته، فقدمت لتلك الأجناس بتسعة فصول مهمة، وأسهبت بعض الشيء في بعضها، وخاصة في فصل أسباب العلة، لعلك لا تظفر به في كتاب، وهو من أهم فصول هذه الرسالة.

والذي حفزني لهذا البحث أمور منها:

١- جمع شتات هذا الموضوع وملء الفراغ الموجود فيه، ولبعض المعاصرين فيه مصنفات لا جديد فيها إلا تكرار لما في مقدمة ابن الصلاح وفروعها.

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٤).

٢ـ إبراز أهمية علم العلل وشرفه على سائر العلوم.

٣ـ بيان دقة المحدثين وبعد نظرهم وحذقهم وذكائهم المفرط في استخراج خفايا العلل والأوهام.

٤ـ إعطاء فكرة شاملة عن العلل عند المحدثين.

٥ـ تمهيد هذا العلم وتبسيطه لطلبة العلم نظرا لدقته وصعوبته.

٦ـ إبراز المجهود العظيم الذي بذله المحدثون دفاعا عن السنة وكشفا لتحريف المبطلين وانتحال الجاهلين.

هذا وقد قسمت البحث إلى فصول عشرة، تحتها مباحث متعددة، وفي أثنائها فوائد متفرقة ولطائف متنوعة، ومهدت للجميع بتمهيد، وهي كالآتي:

تمهيد في مبادئ علم العلل العشرة.

١ـ العلة لغة.

٢ـ العلة اصطلاحا.

٣ـ تاريخ علم العلل.

٤ـ أهمية علم العلل ودقة مباحثه.

٥ـ مكانة علم العلل بين علوم الحديث.

٦ـ كيفية معرفة العلة عند المحدثين.

٧ـ أسباب العلة.

٨ـ أقسام العلة.

٩ـ أشهر المصنفات في العلة

١٠ـ أجناس العلل

"فهذه رسالة في موضوع بور، على أسلوب من عندي بكر، ولعل ذلك من أبين العذر"[(١)]، في تجاوز ما وقع فيها من جور، مستعيذا بالله من الحور بعد الكور، سائلا إياه حسن اللطف في كل طور.

أوردت ما أمكنني من الحُجَج *** مما يقام في طِلابه حِجَج
ومع ذا أقر بالتقصير *** لكل فضل ثابت تحرير

"وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع، فمن كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر، ولا يبادر إلى الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان، وهو يقول له: (أحطت بما لم تحط به)، وليس شيخ الإسلام ـ أي الهروي ـ أعلم من نبي الله، ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم"[(٢)].

"ولابد لهذه النوع من متتبع وناقد، ومستدرك وزائد، كما فعل في حق من تقدم ذكرنا له، فرحم الله امرءا أنصف من نفسه، وانتصف من خصمه، فليس يسلم أحد من سهو وخطأ، والله بمنه وفضله يوفقنا للصواب فيما قصدنا له، إنه ولي الإجابة"[(٣)].

"وهذا حين الشروع في المقصود، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، هو المان به، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله، فيا أيها المتأمل له الواقف عليه، لك غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، ولك فائدته، وعليه عائدته، فلا تعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته، ولا يحملنك شنآن مؤلفه وأصحابه على أن تحرم ما فيه من الفوائد، التي لعلك لا تظفر بها في كتاب. والله يقسم فضله بين خلقه بعلمه وحكمته، وهو العليم الحكيم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو

(١) الشرك ومظاهره (١٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٧).
(٣) الأنساب المتفقة لابن القيسراني (٧) مع التصحيح.

الفضل العظيم»[١].

وكان الفراغ من كتابته بمدينة سلا المغربية يوم ١٩٩٦/٩/٢٧ ثم أضيفت له إضافات وزيادات كثيرة على التراخي من أواخرها يوم فاتح ذي الحجة ١٤٢٣ الموافق ٢٠٠٣/٢/٣

(١) شفاء العليل (٩).